الفنون الجميلة (تابع ما قبلة)

لجناب احمد افندي فهمي احد الطلبة المهندسين في مدرسة الفنون الجميلة بباريس

النبذة الثالثة . في الجمال وفوائد الفنون الجميلة

اما فضل الفنون الجميلة على التمدن فلا ينكرهُ الّا الجاهل ولذلك لا نتعرّض لاثباتهِ هنا ولا لتعيين اسمى درجة يمكنها بلوغها في تمدّن الشعوب لان ذلك يعجز عنهُ اعظم العقول ويقصّر فيهِ ابلغ الاقلام . فالذي يجب ان يعرف مكان الفنون الجميلة من الاعتبار والاهتمام وما بلغت اليهِ من الاتقان والاحكام فليبحث عنهُ عند الامم الغربية التي حازت قصبات السبق وصارت مطمح ابصار الطامعين في العلاء وقدوة الراغبين في الترقي والفلاح . واذا قلتَ ولماذا احلّوا الفنون الجميلة هذا المحل الرفيع وما السبب في اعتنائهم بها هذا الاعتناء ورغبتهم فيها هذه الرغبة . قلتُ ذلك لثلثة اسباب :

السبب الاوّل ضمنّاهُ في ما تقدّم من الكلام وهو انهُ متى اتى امرُ الله على امّةٍ ذات عزّةٍ ووجاهة وأبرم القضاء بانقضائها لم يبقَ ما ينبئ بذكرها وتمدّنها ورفعة مقامها غير فنونها الجميلة فهي التي تحيي ذكرها وتعيد تاريخها وتكشف عوائدها وما كان لها من العظمة والشان في غابر الازمان ولو لم يبقَ منها الّا بقع صفصف تسكنهُ بنات آوى وينعق فيهِ البومُ والغربان . والسبب الثاني شدّة تأثير هذه الفنون في عوائد الناس واخلاقهم الاديبّة واطباعهم الفطريّة وفي الاجتماع الانساني عمومًا . والسبب الثالث تأثيرها في الصنائع

ولبيان ذلك واثبات السببين الاخيرين المذكورين آنفًا نذكّر حضرات القرّاء ان مدار الفنون الجميلة على وصف الجمال وعلى تجليتهِ في صورهِ واشكالهِ وسائر متعلّقاتهِ . فالبحث فيها يكون بعد البحث عن حقيقة الجمال لتتضح حقيقتهُ في الذهن قبل الشروع في الفنون المتعلّقة بوصفهِ وابرازهِ للحواس على صورٍ شتّى . الّا ان المقام لا يسمح لنا باطالة الكلام فنقتصر على طرفٍ ممّا قالهُ اعاظم الفلاسفة في الجمال فنقول

الجمال على ثلثة اضرب جمالٌ طبيعيٌ وجمالٌ عقليٌ وجمالٌ ادبيٌ . فالجمال الطبيعيُ يبدو على المحسوسات كالالوان والاصوات والصور والحركات . والجمال العقليُ يبدو على ما كان العقل مركزهُ والعلمُ والحقُ موضوعهُ كالشرائع العامّة المسلّطة على الاجسام والشرائع المرشدة للعقول والمنيرة للافهام والقوى العقلية المستنبطة والمبتكرة التي اشتهر بها ارباب الفنون وفحول الشعراء وكبار الفلاسفة . والجمال الاديبُ يبدو على الصفات النبيلة والافعال الحميدة الشريفة

كالفضائل والحرّية والوفاء والصداقة وافتداء النفس بالنفس وعجائب الوداد وغرائب الولاء وحب الوطن والعدالة والشجاعة . فكلُّ مَن يتأمّل في عدالة اريستيد[1] وشجاعة ليونيداس[2] وكرم جماعة من العرب كحاتم طي وهرم بن سنان والبرامكة[3] تتفعل نفسهُ انفعالاً لذيذاً حاصلاً

(١) اريستيد هو احد مشاهير الساسيين في الثلثمائة في اواخر القرن الخامس قبل المسيح واشتهر بالعدالة والانصاف حتى صار يضرب به المثل فيها . يروى ان ايثاء وطنهِ حكموا عليهِ بالنفي فقال لما بلغهُ ذلك "غاية تمنّي ان يبلغ اثينا من العز والسعادة ما يغنيها عن عودتي اليها" . وكانت العادة ان هذا النفي لا ينفذ الاّ بعد تصديق اهالي اثينا عليهِ . فاتاهُ فلاّح ذات يوم وكان امياً يجهل القراءة والكتابة وقال لهُ وهو لا يعرفهُ تكرم بكتابة اسمي على هذه الصفيحة تصديقاً على نفي الرجل المذكور فيها وهو اريستيد فقال لهُ اريستيد وما فعل هذا الرجل بك من السوء حتى تصدّق على طردهِ من بلدهِ . قال لم يفعل لي سوءاً ولكني سئمتُ من عدلهِ واسماع قولهم "عادل" في كل مكان اذهب اليهِ فوددت طردهُ تخلصاً من ذلك . فقال هات وكتب اسمهُ وردّ الصفيحة اليهِ

(المقتطف) تجد سيرة اريستيدس وصورتهُ في كتاب عنوانهُ سير الابطال العظام عربناهُ من الانكليزية وطبع في المطبعة الاميركية ببيروت منذ بضع سنين

(٢) ليونيداس ملك من ملوك سبرطه ببلاد اليونان قتل سنة ٤٨٠ قبل المسيح في موقعة ثرموبيلي وذكر ذلك بطول وخلاصتهُ ان زركسيس ملك الفرس زحف على بلاد اليونان بجيش جرّار يقال انهُ بلغ ثلاثة ملايين مقاتل . فخرج ليونيداس لقتالهِ في اربعة آلاف مقاتل وسدّ عليهِ مضيقاً في الطريق . فبعث اليهِ ملك الفرس يقول سلم والاّ امطرت السماء عليكم سهاماً واختطفنا منكم الارواح بالبيض الصفاح فاجابهُ اذن نقاتلكم في ظل السهام . وما زالوا يقاتلونهم حتى قُتلوا عن آخرهم فنقشوا على قبورهم ما ترجمتهُ "هنا اربعة آلاف يلوبونيسي قاتلوا ثلثة ملايين" واليلوبونيسيون هم اهل يلوبونيسوس المعروفة بالمورة

(٣) حاتم الطائي هو المشهور بالكرم الذي يشير اليهِ الشاعر بقولهِ

لما سألتكَ شيئاً بذلتَ رشداً بغيّ
عمن تعلمتَ هذا ان لا نجودَ بشيء
أما مررتَ بعبدٍ لعبدِ حاتمِ طيّ

وكان اذا جنّ الليل يوعز الى غلامهِ ان يوقد النار في يفاع من الارض لينظر اليها من اضلهُ الطريق فيأوي الى منزلهِ . ويقول

أوقدْ فان الليلَ ليلٌ قرٌّ والريحُ يا موقدُ ريحٌ صرٌّ
عسى يرى نارَكَ من يمرُّ ان جلبت ضيفاً لكانت حرُّ

وكان اذا اهلَّ الشهرَ يعقر عشرًا من الابل فيطعم الناس

واما هرم بن سنان المرّي فمن الطبقة الاولى ايضاً في الكرم . مدحهُ زهير ابن ابي سلمى صاحب المعلقة واطنب في مدحهِ بغرر القصائد . وكان هرم قد آلى على نفسهِ ان لا يمدحهُ زهير الاّ اعطاهُ ولا يسألهُ الاّ اعطاهُ ولا يسلم عليهِ الاّ اعطاهُ عبداً او وليدةً او فرساً . فاستحيا زهير مما كان يقبلهُ منهُ . فكان اذا رآهُ في ملإ قال : عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيتُ

واما البرامكة فكرمهم اشهر من أن يذكر وخصوصاً الفضل بن يحيى . ومن الذين جادوا بالنفس والنفيس معن بن زائدة فان ما يروى عن كرمهِ وجودهِ يهيج العواطف ويحرك الخواطر . (المقتطف) نجد عن معن كلاماً مطولاً في الجزء السادس من اللطائف

عمّا تراهُ من جمالها الادبي

هذه هي اضرب الجمال الثلاثة وكلٌّ منها جميل في ذاتهِ لا محالة ولكن الناس مختلفون فيما اذا كانت هذه تبقى ابدًا متفرقة او يمكن اجتماعها وردها الى جمالٍ واحد يكون هو اصلها وهي فروعهُ او ذاتها وهي اوصافهُ او مصدرها وهي شعاعهُ الفائض منهُ

فهذه مسألة قديمة سألها بلوتان احد فلاسفة مدرسة الاسكندرية في زمان البطالسة قال ما هو الجمال في ذاتهِ فانهُ يطلق على اشياء مختلفة كالصور والاشكال والاقوال والافعال . فكيف يصحُّ ان تتشابه هذه المختلفات في الجمال ولا مشابهة بينها في ما سوى ذلك انتهى . نقول ان الجمع بين اضرب الجمال إمّا ان يكون محالاً لاختلافها في ذاتها وإمّا ان يكون ممكنًا لاجتماعها كلها معًا في جامع تسمو حقيقتهُ عن مداركنا . فان قلنا ان اجتماعها في واحدٍ محال وانهُ لا ارتباط بينها اصبح ارباب الفنون في حيرة لا مزيد عليها . لان كلاًّ منهم يضطرُّ في فنّهِ ان يستنبط استنباطًا واحدًا ويجمع فيهِ ضروب الجمال كلها كما هو شرط كل فن على ما هو معلوم . فان كان جمعهُ لضروب الجمال تخيُّلاً لا صحّة لهُ وليس لهُ وجود حقيقي في الطبيعة وكان كل جمالٍ مستقلاً عن الآخر مغايرًا لهُ في حقيقتهِ كان مدار الفنون على التخيُّل الكاذب وكان الشغف بها ولعًا بالكذب والمحال . فيُطلَب من مدّعي هذه الدعوى ان يثبت اوّلاً ان الكذب هو اساس الفنون حتى ينظر بعد ذلك في دعواهُ باختلاف ضروب الجمال بالذات . واثباتهُ ما يطلب منهُ محال لظهور بطلانهِ فبقي ان اضرب الجمال الثلاثة متحدة في اصلها والفنون قد اكتشفت اتحادها هذا فنقلتهُ الى ما صُنِّف وأُبدع فيها

فنروع الجمال ثلثة ولكن اصلها واحد والمتأمّل فيها يجد انها كلها تَرُدُّ الى الجمال الادبي الحقيقي المقرون بكل جمال عقلي كما يظهر من الامثلة الآتية

هَبْ اننا واقفون امام تمثال ابلّون[٤] المعروف بابلّون الفاتيكان[٥] نتأمّل في بديع صنعتهِ وعجيب جمالهِ . فالذي يمرُّ في نفوسنا حينئذٍ بشبهِ ما كان يمرُّ في نفس العالم الالماني انكلمان[٦]

(٤) ابلون هو اله النهار والنور والشمس والفنون والطبيب الالهي عند قدماء اليونان . ابوهُ زفس اله الالهة وامهُ لاتون

(٥) لابلون تماثيل عديدة جدًّا وهذا التمثال اجملها وُجد في خرب انسيوم في اواخر القرن الخامس عشر بعد المسيح فاشتراهُ الكردينال دي لاروفير الذي صار البابا جول الثاني ونقلهُ معهُ الى الفاتيكان (قصر البابوات في رومية) ولذلك يسمى ابلون الفاتيكان او ابلون البلفيدير . واما انشهُ فيقول قوم انهُ لمسكوس ويقول آخرون انهُ لراكسيتيل وآخرون انهُ كلاميس . ووجد أقطع الذراع اليمنى واليد اليسرى فكملهُ مونتورسولي تلميذ مجائيل انجلو

(٦) انكلمان عالم من اشهر علماء الآثار والعاديات . وُلد في ستندال في بروسيا في ٩ دسمبر (كا٣) سنة ١٧١٧

عند تأمّله له . فاوّل ما تلحظهُ النفس على جسمهِ الجميل وقامتهِ المرتفعة عن قامة البشر قليلاً هو غضاضة الشبيبة ونضارة الحياة والقوّة . ثم المهابة العظيمة البادية عليهِ والكبر والأنفة اللاعبان في معاطفهِ

ومات قتيلاً في تريستا في ٨ يونيو (حزيران) سنة ١٧٦٨ وقضى حياتهُ في الجدّ والكد حتى احيى تاريخ الفنون القديمة بعد ان تولاهُ الموت والخمول ازمانًا . وقد وصف ابلون مرتين الاولى في كتاب له اسمهُ الفنون عند القدماء فصل فيهِ فنون اليونان . والثاني في تاريخ لهُ اسمهُ الفنون ايام الامبراطورين . اي قياصرة رومية

فما قالهُ في وصفهِ في كتابهِ الاوّل : ابلون بلفيدير يمثل الاله ابلون وقد هاجت فيهِ نيران الغيظ على النعبان يثون المقتول امامهُ بنبل رماهُ بهِ . وبدت عليهِ علامات الاحتقار والاستخفاف لما ان نصرتهُ على ذلك النعبان لا يحفل بها في من كان مقامهُ مقام الآلهة الاجلاء كمقامهِ . اما علامة الغضب فقد جعلها ناحتهُ المتفنن البارع في انفهِ حيث كان الانف مركز الغضب والغيظ عند الاقدمين واما علامة الاحتقار والاستخفاف فهي ارتفاع شفتهِ السفلى ولذلك ارتفعت ذقنهُ بارتفاعها

وما قالهُ في الكتاب الثاني : من التماثيل التي لم يلحقها تدمير البرابرة ولا تخريبها ايام الزمان تمثال ابلون وهو اجملها هيئةً وارفعها هيبةً واحكمها صنعةً واتقنها دقةً فكأن المتفنن الذي نحتهُ افرغ الصورة الخيالية التي ارتسمت على ذهنهِ في ما لا يزيد من المادة على اظهار تصوّرهِ . فكما ان وصف أُومرس شاعر اليونان لذات الاله ابلون يفوق كل وصفٍ وصفهُ بهِ من تلاهُ من الشعراء فهكذا هذا التمثال يفوق كل تمثال نحتهُ له الآخرون . فقامتهُ اطول من قامة الانسان وهيئتهُ تدلُّ على العظمة الفائقة الادراك البادية على كل جسمهِ . والشبيبة تسطع على جسدهِ الجميل فتكسبهُ من النضارة والغضاضة والاشراق ما يجعل غصن قدهِ رطيبًا وروض حسنهِ يانعًا خصيبًا فهو بريع شبابهِ كجنة النعيم بريعها الازليّ الابديّ . وهو معجزةٌ من معجزات الفنون لا يعرف قدرها الاّ الفائقون في النهى والادراك الذين أُلقيت اليهم مقاليد الاختراع والاستنباط واطلعوا على اسرار علوية غير هذه الاسرار الطبيعية . فليس في هذا التمثال شيءٌ من الاشياء الخاضعة للضعفات البشرية ولا عضو من الاعضاء القابلة للبلى والفناء فانتظامها كلها على غاية التمام لا يخلُّ بها وترٌ ولا يعيق حركتها عائق . فكأنها زهرة ازهرت في شمس العقل السرمدي ولعب نسيم اللطف والغضاضة في اطرافها فزادها بهجةً ونضارةً

هذا ابلون وقد شدَّ قوسهُ واتبع النعبان يثون كالنسيم فادركهُ واذاقهُ غصص المنون . ثم كأنهُ فطن الى عظم قوّتهِ فشمخ ونظر كأن السرور المحيط بهِ جوٌّ وهو يتطلع من خلالهِ الى اقصى الافاصي في ما لا نهاية لهُ متباعدًا متسابقًا عن هذه النصرة الطفيفة التي اقتصرها على النعبان يثون . وقد بدا الاحتقار على شفتيهِ ونفخ الغضب منخريهِ واما جبهتهُ فالهدوء الابدي مستقرٌّ عليها وعيناهُ يفيض منهما اللطف البديع باهيًا كحسنهِ وبهائهِ حين بلاطفهُ الموز (هنّ الاهات الفنون وعددهنّ تسعٌ ورئيسهنّ ابلون)

هذا وبين كل الصور الباقية من صور زفس ابي الالهة لا توجد صورة تبدو عليها العظمة التي بدت على صورتهِ المتخيلة امام قريحة أُومرس شاعر اليونان المشهور . اما تمثال ابلون الذي نحن بصددهِ فجامع لجمال الآلهة كلهم فجبهتهُ في جبهة زفس المخيلة فيها الاهة العقل . وحاجباهُ هما حاجبا زفس حين كان يحركهما للتعبير عن سامي مشيئتهِ . وعيناهُ عينا ملكة الالاهات الجلاوان المشرقتان بالهيبة والوقار . وفمهُ فم برانسيوس (ابن ابلون) الذي كان يتنفس بهِ اللذّة واللطف . وشعرهُ على راسهِ كاسلاك الكروم التي عبث بها النسيم وطيبها باطياب الآلهة وقد تدلى عن راسهِ على غاية الحسن كأن الزهرة الهة الجمال قد دلتهُ بيدنها وابدعت فيهِ بافتنانها

فما نظرت عيني الى هذه المعجزة الاّ اذهلتني عن العالم وما فيهِ ورفعت مداركي الى ما فوق الطبيعة فصرت احكم

تمثال أبلون الفاتيكان

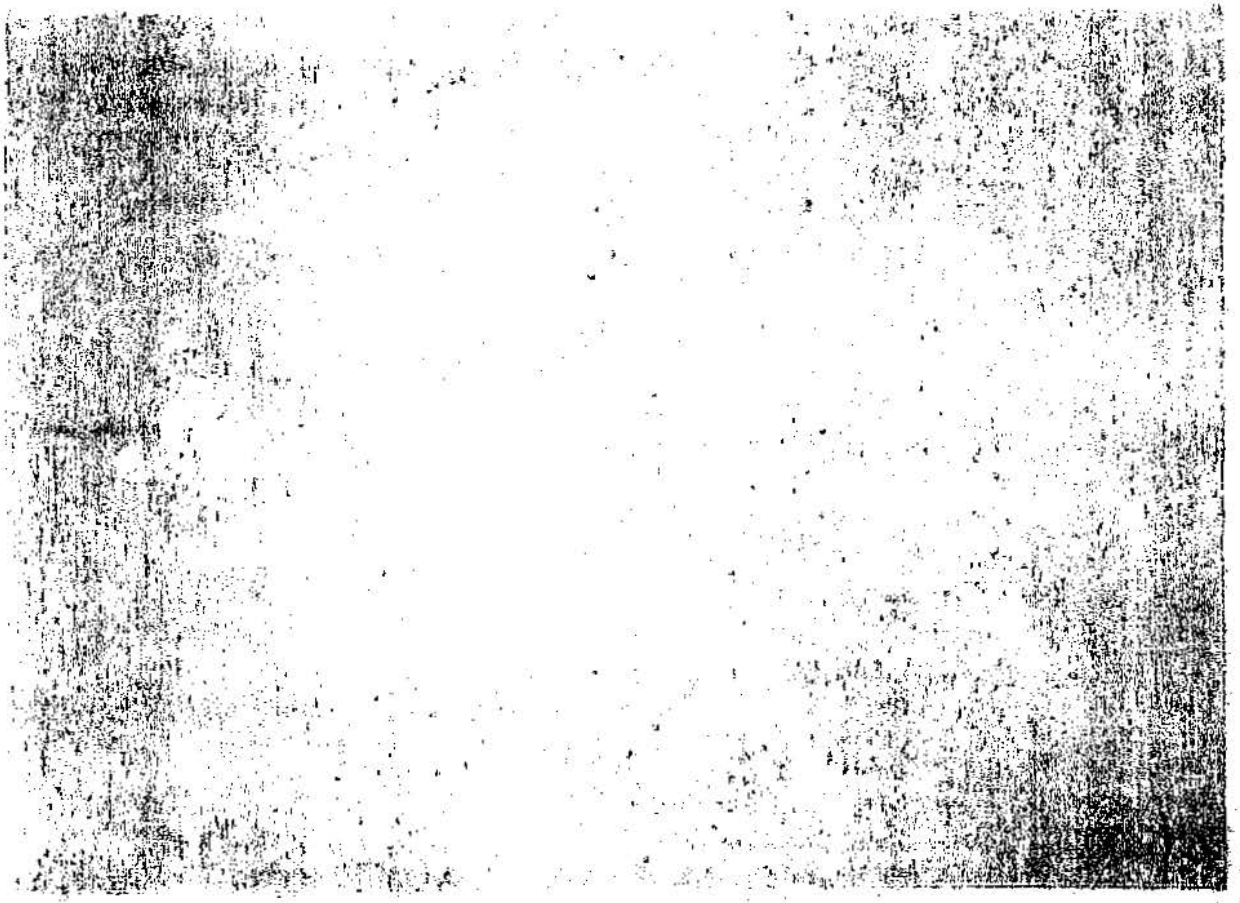

صورة هيوت سفر أطلس (٧)

والظافران على منظره ووقفته . ومما تنبه اليه الاذهان الهدوء التام الحال على جبينه فانه لا يضطرب ولا يتغير لتلقي ولا لكدر . فما هو الا جبين اله . واما ما تحت الجبين من جسمه فالعلامات البشرية بادية فيه قليلاً . فمنظرة الدال على شفاء غليله وانفه المنتفخ وشفته السفلى المرتفعة تدل كلها معاً على تحرك الغيظ مع الاحتقار في صدره وعلى فخره بالنصرة والتعب اليسير الذي تعبه في نوالها

ثم أمعن النظر في ما يقوله انكلمان بعد وصفه تجد ان تأثيرهُ الادبيّ يزيد تدريجاً وعواطفك تجيش وتعلو شيئاً فشيئاً حتى يصير لكلامه رنّة تهيج لها الاشجان وتشعرُ من تأثيرها الابدان . ذلك وانكلمان لم يكن فيلسوفاً يريد اثبات مذهب فلسفي او حكم نظري بل عالم في الآثار سليم الذوق ينطق عن تأثر وانفعال من رؤية آثار الجمال

ولنبدل تمثال الاله بتمثال انسان عاش ومات مختاراً الفضيلة على الجاه والغنى وتعشق الحقيقة حتى ادرك ابعد غاياتها علماً وعملاً وهو الفيلسوف سقراط الذي فاق الناس بجودة قريحته واخلاص محبته وتمام صدقه . فقد كان دون سواهُ من اليونان بعيداً عن الشكل اليوناني الجميل عادماً حسنهُ البارع ولذلك لا يرى الانسان على صورته شيئاً يميزهُ بجمال الا اذا نظر اليه وهو جالس على سرير الموت وقد مدّ يمناهُ ليتناول بها كاس السم ويموت فداء الفضيلة ورفع يسراهُ مشيراً الى ما وراء الموت في محادثة اصحابه عن الحياة والروح والمآب والمعاد والخلود . فانك لترى على وجهه حينئذٍ ما يسبيك من سامي الحسن وبديع الجمال

عليها بما يوافق سامي مقامها واشعر كأن صدري قد سما وارتفع كمن يؤتى وحياً او تنزل عليه النبوّة . وكأني اطوف في جزيرة دبلوس (في الارخبيل الرومي) او اتمشى في خياض الليسي ... (اقليم من الاقاليم القديمة في اسيا الصغرى) المقدّسة حيث كان يطوف ابلون كما يروي الراوون ..... أفريدة الصنع كيف الوصول الى وصفك بما انت فيه وكيف يجترئ قلمي على اظهار محاسنك ان لم يهبط النون عليّ بحكمتها وترشد براعتي في ما يخطه . أمحجرة الزمان وبهجة النون هذه اسطر خطتها يميني طمعاً في وصفك ولكني لم تستطع ان تعبر عن يسير ما يهيج عواطفي ويحرك اشجاني فانا اطرحها على قدميك كالذين كانوا في زمانهم يأتون الآلهة بالاكاليل فيطرحونها على اقدامها لعجزهم عن البلوغ الى رؤوسها

(٧) هذه الصورة صوّرها داود احد مشاهير المصوّرين الفرنسويين وانرجوه التي فيها في وجوه سقراط واصحابه كما هي مفهومة في تماثيلهم القديمة . وقد اجاد داود في كل صورة منها تمام الاجادة . انظر الى سقراط ترَ الرجاء والذكاء يلوحان على وجهه حتى كأن نفسه تفيض عليه . وانظر الى افلاطون جالساً عند قدميه ترهُ قد ادار وجهه عنه والقى الرق بجانبه والقلم بردائه واطرق مصغياً الى كل ما ينطق به معلمه ليعي كل لفظة من الفاظه في اعماق صدره . وهكذا سائر اصحابه وتلامذته وذوي قرباه

(المقتطف) تجد سيرة سقراط وصورته في كتاب ترجمناه من الانكليزية واسميناه سير الابطال العظام وقد سبقت الاشارة اليه . وتجد سيرته ايضاً في الجزء الثالث من اللطائف

وقضى سقراط وهو في اوج العظمة الادبيّة ولم يبقَ منهُ بعد ذلك الاّ جسمٌ ميت لا جمال لهُ لانهُ لما كان عقلهُ يلوح على وجههِ ونفسهُ تشرق على طلعتهِ كان جمالهُ باهرًا ولكنهُ لما فارقتهُ روحهُ جعل بهاؤهُ يضمحلُّ شيئًا فشيئًا وجاء القبحُ بعد الجمال . فان هيئة الموت قبيحة لانحلال المادة بهِ اذ لا يبقى العقل قادرًا على حفظ تركيبها او على البقاء فيها . ولا يرى لها الناظر جمالاً اذ ذاك الاّ اذا ادّت الى ذهنهِ صورة الخلود والبقاء

هذا واذا نظرنا الى وجه الانسان في حال السكون وجدناهُ اجمل من وجوه ما دونهُ من انواع الحيوان ووجوه الحيوان اجمل ممّا لا نفس لهُ . وذلك لان وجه الانسان يبدو عليهِ ما يدلُّ على انهُ كائن ذو آداب وعقل ولو لم يكن ذا فضيلة ولا قريحة وقّادة ووجه الحيوان تبدو عليهِ افعال النفس في الحس والانفعال مثلاً . واما ما سواها من المخلوقات فكلُّ ما كثرت عليهِ لمحات العقل وآثار القصد زاد جمالهُ وكلُّ ما قلت عليهِ قلّ جمالهُ حتى لو فُرض انهُ وُجد جسم لا يدلُّ على معنًى من المعاني ولا يشير الى مقصد من المقاصد لكان الناظر لا يجد فيهِ اثرًا للجمال على الاطلاق . ولكن كل المخلوقات من حيوان ونبات وجماد مقترنة بقوّات غير ماديّة وخاضعة لسنن وشرائع دالّة على ان العقل موجود في كل جهة من جهات الكون . فالتحليل الكيماويُّ الذي يفضي بالاجسام في الظاهر الى الفناء والاضمحلال انما يفضي بها في الحقيقة الى اجسام أُخرى منتظمة انتظامًا خاصًّا خاضعة لشرائع متأثرة بقوّات . والحاصل اننا كيف اتجهنا وحيث تأمّلنا وجدنا العقل الازلي الابدي ناقذًا جواهر الاشياء ظاهرًا على وجوهها . فكما ان عين الجسد ترى حولها كائنات حيثما اتجه النظر على وجه هذه البسيطة هكذا عين القلب ترى حولها هيئة منتظمة ادبية حيثما تأملت . ففاتح المجر عندها كأعلى الافلاك والرمل الدقيق كالسهول الفسيحة والجبال الشامخة

قلنا ان وجه الانسان والحيوان يبدو لنا جميلاً لانفعالنا بافعال النفس البادية عليهِ فجمالهُ يشفُّ لنا عن النفس المستترة وراءهُ . ولا يخفى ان من يصعّد في الجبال الشامخة او يقف على شاطىء البحر الهيّاج او ينظر الى شروق الشمس وغروبها ويشاهد تعاقب النور والظلمة ينفعل مثل ذلك الانفعال ويدرك في الحال انها ذات حسن وجمال . أفلا يشفُّ هذا الحسن فيها اذًا عن قوّة عظيمة مستترة وراءها وعقل فائق يهديها بهاءها

ثم ان الهيئة لا تقوم بذاتها بل لا بد لها من مقوّم فالجمال الطبيعي لا بدّ لهُ من جمال وراءهُ هو الجمال العقلي الادبي الذي مرّ ايضاحهُ وهذا هو اصل اضرب الجمال الثلثة والجامع لها كلها ويحصل من ضروب الجمال السابق ذكرها الجمالُ الحقيقيُّ او الجمال الواقعيُّ المشاهد

وهناك جمال أسمى منه وهو الجمال الخيالي او التصوّري وهذا مستقلٌ عن الكائنات لا يشاهد في شخص خصوصًا ولا في الاشخاص عمومًا ولكن يُتَّصل اليه باستقراء الجمال في الكائنات نفسها . فلا يخفى ان الانسان يقدر على تصوُّر جمال يفوق جمال كل وجهٍ من الوجوه وكل صورة من الصور التي رآها فتمثال ابلّون الڤاتيكان نفسهُ لم يبلغ الغاية التي يبلغها التصوُّر من الجمال ولذلك تراهُ قابلاً للانتقاد والاعتراض . أرِني اي جمالٍ شئتَ وانا لا ازال اتصوَّر جمالاً اسمى منه . وهذا هو الجمال الخيالي وهو يتباعد عن الانسان كلَّما حاول البلوغ اليه حتى يدخل في حيّز ما لا نهاية له اي حتى يتصل بالخالق جلَّ جلالهُ . فالجمال الخيالي انما هو جمال الذات العليّة السرمديّة

ولا حرج في هذا القول ولا مشاحة فانّ الذات العليّة موجدة للعالم الطبيعي سائقة على العالم العقلي والادبي خالقة كل الاشياء فهل يمتنع كونها اصلاً للجمال ايضًا . وعليهِ فالخالق سبحانهُ هو اصل الجمال الطبيعي والجمال العقلي والجمال الادبي

فاذا علمتَ ذلك علمتَ نفع الفنون الجميلة ولزومها للهيئة الاجتماعية فانها هي الحافظ الامين للجمال في العالم وغايتها وصفهُ واظهارهُ للحواس في صور محسوسة على قدر الطاقة فيكون تدميث الاخلاق وتحسين الاذواق وتهذيب المشارب وتظهير العوائد من متعلقاتها . فكلَّما شاعت وعمَّت في الامّة تعزَّزت الفضيلة وعمَّت الافراد فأصلحت آدابهم وحضَّتهم على قضاء واجباتهم واحكمت نظام اجتماعهم . وبذلك تبيَّن لك السبب الثاني من الاسباب الثلثة السابق ذكرها وهو تأثير الفنون الجميلة في الاخلاق والعوائد والاجتماع الانساني

اما السبب الثالث وهو تأثيرها في الصنائع فظاهر . لانهُ لما كانت كل الاشغال فيها جميلة متناسبة الاجزاء كان انتشارها بين الناس عمومًا واصحاب الصنائع خصوصًا مما يربي الذوق العقلي فيهم على حُبّ الجميل ويحملهم على تحرّي الجمال في المصنوعات فتأتي مصنوعاتهم متقنة متناسبة الاجزاء مستوفية شروط الجمال . وبدخول الجمال في صنائعهم تدخل فضائلهُ الى اعمالهم واخلاقهم واقوالهم

والنشاط العقلي الذي يشاهد في الامم المتمدنة راجع الى انتشار الفنون الجميلة بينها لان هذه الفنون في غذاء الذوق وبها نماؤهُ . والذوق السليم الرقيق يميّز المتمدن عن غيرهِ فيجعلهُ قابلاً للتأثر اللطيف مما حولهُ . ولهذا ترى انك اذا نقلت انسانًا من سكان المدائن الى مدينة أخرى مختلفة عن مدن بلادهِ في عوائدها ومشاربها واصطلاحاتها ولغتها فانهُ يسلك مع اهلها في زمان قصير ويستسهل معارجتهم ومعاشرتهم اكثر مما يستسهلها فلاّح أتى تلك المدينة من قرية قريبة

اليها مشابهة لها في عوائدها ولغتها . وما ذلك الاّ لان الغريب قد ربي ذوقهُ على الفنون الجميلة والفلاّح لم يربَّ ذوقهُ عليها لوجود هذه الفنون في المدن اكثر ممّا في القرى عادةً فسهُلت على الغريب ما استُصعب بدونها على القريب

ولا يخفى ان الفنون الجميلة تعلّم الانسان في زمان قصير وجهد يسير ما لا يتعلّمهُ بدونها الاّ بعد الوقت الطويل والجهد الشديد . فقد يقضي العالم البعيد عن ديار الفنون ايامهُ مكبًّا على كتبهِ باذلاً القوى في استيعاب ما فيها ليفهم امرًا ربّما فهمهُ العامي في هنيهةٍ من الزمان بمجرّد اطلاعهِ على صورتهِ في ديار الفنون . ثم يغلب ان العالم ينسى مع الايام ما حصّلهُ بالجهد والمشقّة وطول الامعان والعامي لا ينسى ما حصّلهُ في لحظةٍ بلا جهدٍ ولا مشقّة . وسبب ذلك ظاهر وهو ان الصور العيانيّة تحفظ في الذهن حفظًا اتمّ من حفظ الصور الخياليّة . وبالاجمال نقول انهُ لم يشتغل احدٌ في الفنون الجميلة الاّ تنبّهت قريحتهُ من حال السكون والخمود الى حال الابتكار والابتداع اذ الابتداع والاختراع شرط من شروط الفنون وكل مباحثها وتفاصيلها مباحث عقليّة مقوّية للاذهان

فهذه هي الفنون الجميلة بوجه العموم ولمّا رأيت ان سمو مولانا المعظم وخديوينا المفخّم قد ابتدأ حالة التمدن في قطرنا السعيد كما ابتدأ حالة الانتقال مولانا الطيب الذكر المغفور لهُ محمد علي باشا اتيت ببضاعتي المزجاة قارعًا ابواب العالمين العاملين منشئي المقتطف اللذين حازا باجتهادهما ومآثرهما سامي المقام من التجلّة والاكرام حتى صار المشارقة يفاخرون بعلمها المغاربة راجيًا ان يفتحا للفنون الجميلة بابًا واسعًا في مقتطفهما ليعمّ نفعها ابناء الوطن وتنتشر فوائدها انتشار سائر العلوم . وانا انوي ان شاء الله ان اتبع مقالتي هذه بمقالات في فلسفة الفنون الجميلة وآراء القوم فيها وتاريخها وترجمات اربابها والذين اشتهروا فيها . وانما يحملني على ذلك مع قصر باعي رغبتي في خدمة الوطن وحبي لتعميم هذه الفنون . وهذا عذري لدى العلماء محرّري المقتطف وقرائهِ الكرام (٨)

(٨) (المقتطف) تجد مقالةً في فلسفة الجمال قد حوت آراء الفلاسفة فيهِ وجه ٣٣١ ومقالة أخرى في ذوق الناس في الجمال وجه ٣٣٩ من المجلد السادس من المقتطف